

القَصَصُ الدِّينِيُّ
الحلقة الرابعة
العرب في أوربا

العز في ضقلية

عبد الحميد جودة السحار

كان وقع أقدام الخيل على الأرض الصلدة ،
 يمزق سكون الليل . وبدا الضوء الخافت المنبعث
 من شموع الدير ، كالخط الأبيض في الثوب
 الأسود . واشتدت الرياح فكان لها في النفوس وقع
 النحيب ، فزاد ذلك المكان وحشة . ورفع الشريف
 بوفيموس رأسه ، وتمهل في سيره ، فجذب أتباعه
 أعنة جيادهم ؛ وأرهفوا آذانهم ، حتى إذا ما أصدر
 إليهم أوامره ، نفرُوا خِفَافًا لِنَفَاذِهَا . ولكن شفتيه لم
 تتحركا ، بل مدَّ بصره أمامه ، وقد لاح الخجل في
 مُحَيَّاه ، وخفق قلبه ، واستيقظت مشاعره ، وأريقت
 عواطف الحب في جوفه ، ففي ذلك الدير الذي يقع
 منه على مرمى حجر ، من شغف بها حبًا ، وسلبته

طُمَأْنِينَتِهِ ، وَجَعَلَتْهُ حَلِيفَ السُّهَادِ .

وَاسْتَمَرَ فِي صَمْتِهِ ، وَإِنْ كَانَتْ إِحْسَاسَاتُهُ تَمُورُ
فَوَّارَةً بَيْنَ جَوَانِحِهِ . وَاشْتَدَّ بِهِ وَجْدُهُ ، فَإِذَا بِهِ يَفْكُرُ
بِقَلْبِهِ ؛ فَلَكَزَ جَوَادَهُ وَانْطَلَقَ كَالسَّهْمِ صَوْبَ الدَّيْرِ ،
وَأَتْبَاعُهُ يَعْدُونَ فِي أَثَرِهِ ، حَتَّى إِذَا بَلَغَهُ اقْتِحَمَهُ
عَنُوةٌ ، وَدَخَلَ يُنْقِبُ عَمَّنْ تَعَلَّقَ بِهَا الْفُؤَادُ .

وَهَبَّتِ الرَّاهِبَاتُ مَفْزُوعَاتٍ ، وَرُحْنٌ يُهْرَوِلُنَّ
مَرَعُوبَاتٍ . وَدَوَّتْ فِي جَنَابِ الدَّيْرِ صِيحَاتُهُنَّ ،
فَلَمْ يَحْفَلْ بُوْفِيمْيُوسُ وَرَجَالُهُ بِصَرَاحِهِنَّ ، بَلْ ظَلُّوا
فِي تَجَوَّاهِهِنَّ ، يُدِيرُونَ الْعُيُونَ فِي وُجُوهِ الرَّاهِبَاتِ ،
وَلَحَّهَا بُوْفِيمْيُوسُ فِي ثَوْبٍ أَيْضٍ ، وَقَدْ تَهَدَّلَ شَعْرُهَا
عَلَى كَتِفَيْهَا ؛ فَاشْتَدَّ وَجِيبُ قَلْبِهِ ، وَهَفَّتْ رُوحُهُ
إِلَيْهَا ، فَتَقَدَّمَ مِنْهَا ، وَحَمَلَهَا بَيْنَ ذِرَاعَيْهِ ، ثُمَّ دَارَ
عَلَى عَقْبَيْهِ ، وَانْسَابَ بِهَا وَهُوَ يَحْسُ أَنَّهْ يَضُمُّ الدُّنْيَا
إِلَى صَدْرِهِ ، وَامْتَطَى جَوَادَهُ ، وَقَدْ أَرَكَبَهَا أَمَامَهُ ،

وانطلقَ بها إلى قصره ، وأتباعه يعدون خلفه .
وذاغَ في صِقلِيَّة ، أن الشريفَ بوفيمْيوس ،
اختطفَ الرَّاهبةَ التي هامَ بحبِّها من دَيْرِها . وبلغَ النَّبأُ
مسمعَ قُسطنطين ، بطريق صِقلِيَّة ، فثارَ واشتدَّت
ثورتهُ ؛ فرفعَ الأمرَ إلى الإمبراطورِ ميخائيلَ الثاني
بالقُسطنطينيَّة ، فأحنقَ الإمبراطورُ ذلكَ النَّبأَ ، وزاد
في همِّه . إنه ليرى العربَ يستلُّونَ أملاكه من يده
قطعةً قطعة ، ويرى الناسَ يشورون عليه في بلاده .
وكانما لم يكن في كلِّ ذلك ما يكفيه ، فهبَّ ذلك
الشَّريفُ المفتونُ ويتحدَّى سُلطانَه .

وقد رأى الإمبراطورُ أن يطرشَ بذلك العاثرَ ،
لُعيدَ إلى نفسه هيبتَها ؛ فكتبَ إلى البَطريقِ قُسطنطينَ
أن يحاكمَ بوفيمْيوس ، وأن يحكمَ عليه بِجَدْعِ أنفِه ،
عقاباً له على ما اقترفَ من جُرم ، وليكونَ عِبرةً
لكلِّ مَنْ تُوسوسُ له نفسهُ بالخروجِ عن الطَّاعة ،

والعبث بأمن البلاد .

وبلغ بوفيمیوس ما قضى به الإمبراطور ، فغادرَ
« بالرم » فارًّا بنفسه ، وذهب إلى سِرْقُوسَة
(سيراكوزا) ، وأعلن أصحابه أن الإمبراطور أمرَ
بمحاكمته ، فغضبوا له ، وجمعوا جموعهم ليعينوه على
الصُّمود في وجه الإمبراطور .

واشتدَّ ساعدُ بوفيمیوس ، فثارَ في عصابته على
حاكم المدينة ، واستولى على سِرْقُوسَة . وأثارَ ذلك
النَّصرُ حنقَ البطريقِ قُسطنطين ، فجمعَ جيشًا وانطلقَ
به إلى ذلك الثَّائرِ ليؤدِّبه ، ولكن بوفيمیوس هزمَ جيشَ
البطريق ، وأجبره على الفرار إلى « قطنيا » .

وشقَّ ذلك على الإمبراطور ، فبعثَ بأساطيله إلى
صِقْلِيَّة ، وسيرَ الجيوشَ إلى ذلك الثَّائرِ ، الذي شقَّ
عصا الطاعة . والتقى الجمعان ، ودارت رحى
الحرب ، وحمى وطيسُها ، ولم يُطلق بوفيمیوس

وعصابتُه الصبرَ أمامَ ذلكَ الجيشِ المتدفّقِ كالموج ،
فانهزمُوا ، وأسرعُوا إلى مراكبهم ، لتقلعَ بهم بعيداً
عن شواطئ صِقْلِيَّة .

٢

وصلتِ مراكبُ بوفيميوسَ وصحبُه إلى تونس ،
فهبَطُوا منها : ويَمَّمْ بوفيميوسُ إلى قصرِ الأميرِ زيادةِ
اللّه بنِ الأغلب ، ودخلَ عليه ، وطفقَ يذكرُ له ما
تقاسى أهلُ صِقْلِيَّة ، من صنوفِ العذاب ، وجعلَ
يُزيِّنُ له فتحَ الجزيرة ، لتخليصِ أهلها من طُغيانِ
الرُّوم ، الذين أسرفُوا في استِغلالِ الجزيرةِ
واستنزافِ موارِدِها ، بعدَ أن خرجتْ من أيديهم
سوريَّة ومِصر ، ليعوّضوا ما خسروهُ .

وأطرقَ الأميرُ زيادةُ اللّه يفكّر . كان يخشى أن
تكونَ هذه الدَّعوهُ مكيدةً للإيقاعِ بالمسلمين ، فقال
بوفيميوس :

— إذا ما خلّصتنا ممّا نحن فيه من ذلّ ، نادينا بك
ملكاً على البلاد .

فرفع الأمير رأسه وقال :

— استشير رجالي ، ثم أنبئك بما عزمت عليه .

وخرج بوفيموس ، وأرسل الأمير إلى أسد
بن الفرات ، قاضى قضاة قيروان . فأقبل أسد في
مهابته ، فقد كان عالماً جليلاً ، جاب الأقطار ، وشدّ
الرحال إلى مصر والشام والعراق ومكة ، يجمع
العلم من أطرافه ، وصحب الإمام مالك ؛ ثم استقرّ
به المقام في تونس ، وصار يقضى بين الناس .

وقصّ الأمير على أسد بن الفرات ما سمعه من
بوفيموس ، وما جاء من أجله ، ثم قال :

— وما ترى الآن ؟

فقال أسد : « أرى أن تنتهز هذه الفرصة ، وأن
تبعث بالجيش إلى صقلية ، لعلّ الله يفتح على

يديك هذه البلاد .

ورنا الأميرُ إلى أسدِ رَنوةِ إكبار . كان يعلمُ أنَّه
عالمٌ من كبارِ العلماء ، وبحارٌ من أفذاذِ الرجالِ
الذين ركبوا البحر ، فقال له :

— لن يخرجَ في هذه الغزوةِ غيرُك .

وتأهَّبَ أسدُ بنُ الفرات ، قاضى قضاةَ قيروان ،
ليقودَ أسطولَ المسلمين إلى صِقلية .

وفي ربيعِ الأوَّلِ من عام ٢١٢ بعدَ هجرةِ
الرَّسول ، خرج إلى عرضِ البحرِ سبعونَ مَرَكبا ،
وعشرةُ آلافِ مقاتل ، وتسعُ مائةِ فارس . وأصدرَ
العالمُ البحارُ أمره بالسَّير ، فأبحَرَ الأسطولُ الإسلاميَّ
، وأبحرت معه مراكبُ بوفيمبوس ، لتخليصِ أهلِ
صِقليةَ من ظلمِ الرُّوم ، ولِتَنكَّسَ النُّسرَ الرُّومانيّ ،
رمزَ العسفِ والجور ، وليُرفرفَ على ربوعِ الجزيرةِ
عَلَمُ الأمنِ والسلام .

انطلق الأسطول الإسلامي إلى الشمال الغربي من الجزيرة ، ودخلت المراكب مرفأ مازارا ، وهبط المجاهدون إلى الشاطئ ، واصطف الفرسان ، وعبأ ابن الفرات جيشه ؛ ثم انسأ صوب الشرق ليستولى على الجزيرة كلها ، ويخلصها من طغيان الرومان . .

وتقدم على حذر ، وما لبث أن وجد أمامه جيشاً من الروم جرأرا ، جيشاً يعادل عشرة أمثال جيشه ، في عدة عظيمة . فلم يضطرب ابن الفرات ؛ كان واثقاً من رجاله ، وكان على يقين أن قلوب أعدائه هواء .

وراح يحرض رجاله ، ويذكرهم بأفضل ما فيهم ، وقرأ « يس » ثم كبر ، فانقض المسلمون على

أعدائهم انقضاَضَ الصَّاعِقَةُ ، وسالتِ الدِّماءُ ،
وبلغت قلوبُ الرُّومِ الحناجرَ ، وزلزلوا زلزالاً
شديداً ، ولاحَ النَّصرُ للمسلمينَ ، فأخذوا يَحْتَسُونَ
بسيوفِهِم ، وركبُوهم من كلِّ جانبٍ . فلم يجدِ الرُّومُ
مَنْجاةً لهم إلاَّ الفِرارَ ، فَوَلَّوْا الأدبارَ ، وقد خَلَفُوا
وراءَهُم دوابُّهم وأموالُهُم ؛ فراحَ المسلمونَ يجمعونَ
الغنائمَ ، وقد أفعَمَ النَّصرُ قلوبَهُم غبطةً وسروراً .

وتقدَّمَ المسلمونَ ، فراحتِ الحُصُونُ تسقُطُ في
أيديهم حصناً حصناً ؛ حتى إذا ما بلغوا قلعةَ الكراثِ
، ألفوا خَلْقاً كثيراً من الرُّومِ قد تحصَّنوا بها ؛
فحاصروها ، وراحوا يضربونها بالمنجنيقَ ، ويلقونَ
عليها النَّيرانَ ؛ حتى إذا ما اشتدَّ الضَّيقُ بالمُدافِعينَ ،
أرسلوا رسلَهُم إلى ابنِ الفُراتِ يُفادِضُونَهُ في
الصُّلحِ .

رأى بوفيمْيوسُ ما حلَّ بالحاميةِ ، فضايقه نصرُ
المسلمينَ ؛ فابنُ الفُراتِ لم يُشركهُ معه في القتالِ ،

بل أمره أن يعتزل ؛ فخشى أن استمر نصر المسلمين ، أن يخرج صفر الدين ، دون أن يحقق بعض أطماعه ، فقد كانت نفسه تهوى أن يولى على الجزيرة من قبل الذين حرّضهم على غزوها ، ولكنه يحس الساعة أن ذلك لن يكون ؛ فعزم على أن يعاون من في الحامية ، لعلهم يذكرون له فضله ، إذا ما ثبتوا في وجه ذلك التيار الجارف ، وتمكنوا من ردّ المسلمين .

أرسل بوفيموس إلى الرّسل أن يشتوا ، وأن يحفظوا بلادهم ، ووعدهم أنه سيمدّ إليهم يد العون . فعزم المفاوضون على خديعة ابن الفرات ، حتى يفي لهم بوفيموس بوعده ؛ فصالحوا المسلمين على أن يبذلوا لهم الجزية ، وسألوهم ألا يقربوا منهم . فأقرّ ابن الفرات ذلك الصلح ، وتأخر عنهم أيّاماً ، حتى يحملوا إليه أموالهم .

وفى سكون الليل ، راح بوفيموسُ يبعثُ إلى رجالِ القلعةِ ما يحتاجون إليه ، إذا ما عادَ المسلمون لحصارهم ، حتى إذا ما أحسوا منعةً ، نقضوا عهدهم ، وناصبوا المسلمين العداة . فعاد ابنُ الفراتِ إلى حصارهم وقتلهم ، وبث السرايا في كل ناحية ، وحاصر سرقوسة (سيراكوزا) براً وبحراً ، وبوفيموس في رفقتِه ، يرقبُ الفرصة التي تسحُ له ليحققَ مطامعَه .

٤

كان ابنُ الفراتِ يضيقُ الحناقَ على سرقوسة ؛ وقبل أن يلوحَ له النصر ، تفشى الطاعونُ في جيشه ، فراح الموتُ يحصدُ الرجالَ الصناديد . وأخذ ابنُ الفراتِ يُحاربُ الوباءَ والأعداءَ ؛ انتصرَ على الروم ، ولكن المرضَ قضى عليه .

هَلَكَ أَسَدُ بْنُ الْفَرَاتِ أَمِيرُ الْجِيوشِ ، فَقَامَ مُحَمَّدُ
بْنُ أَبِي الْجَوَارِي يَقُودُ الْمُسْلِمِينَ ، وَقَدْ فَتَّ الطَّاعُونَ
فِي عَصَدِهِمْ ؛ فَقَرَّ عَزْمُهُ عَلَى الْعُودَةِ بِمَا بَقِيَ مَعَهُ مِنَ
النَّاسِ ، وَلَمْ يَجِدْ فِي ذَلِكَ مِنْ بَأْسٍ ؛ فَقَدْ عَادَ خَالِدُ
ابْنُ الْوَلِيدِ بِالْمُسْلِمِينَ مِنْ مُوتَةٍ ، بَعْدَ أَنْ اسْتَشْهَدَ
الْقَوَادُّ الثَّلَاثَةُ الَّذِينَ وَلَّاهُمُ الرَّسُولُ ، وَكَانَتْ هَذِهِ
الْعُودَةُ أَقْرَبَ إِلَى النَّصْرِ .

أَمَرَ ابْنُ أَبِي الْجَوَارِي رَجَالَهُ أَنْ يَرْكَبُوا مَرَاكِبَهُمْ ،
وَأَنْ يَتَأَهَّبُوا لِلرَّحِيلِ ؛ فَامْتَلَأَتِ الْمَرَاكِبُ بِالرِّجَالِ ،
وَقَبْلَ إِقْلَاعِهَا لَاحَ الْأَسْطُولُ الرُّومَانِيُّ ، وَقَدْ سَدَّ
بَابَ الْمَرْسِيِّ ؛ فَرَأَى ابْنُ أَبِي الْجَوَارِي أَلَّا مَفْرًا مِنَ
الْقِتَالِ ، فَعَزَمَ عَلَى الْعُودَةِ إِلَى الْجَزِيرَةِ ، وَأَنْ يَنْطَلِقَ
غَازِيًا فِيهَا إِلَى أَنْ يَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرَهُ .

وَعَادَرَ الرِّجَالُ مَرَاكِبَهُمْ ، وَأَمَرَهُمْ ابْنُ أَبِي
الْجَوَارِي بِإِحْرَاقِهَا ، فَانْدَلَعَتِ النَّيرانُ فِيهَا ، وَلَمْ يَبْقَ

للمسلمين إلا أسيافهم ، وما يستولون عليه من
أيدي أعدائهم .

وتقدّموا كالليوث إلى مدينة منباو ، وحصروها ؛
ولم تنقُص ثلاثة أيّام إلا كانت المدينة في حوزتهم .
فشدّ ذلك أزرهم ، وأنعش الأمل في صدورهم ،
فكانوا كلّما حاصروا حصناً سقط في أيديهم ،
وفيما هم في تقدّمهم ، جاء إلى الجزيرة أسطول
أندلسيّ بقيادة أصبغ ، فخفّ المسلمون الأندلسيّون
إلى إخوانهم ؛ ثمّ انطلقت الجيوش الإسلامية إلى
« بلوم » عاصمة صقلية ، ليضعوا أيديهم عليها .

ودوّى في الفضاء تكبير وتهليل ، فالتفت
المسلمون وقد هزّهم الفرح ، فقد جاءتهم جيوش
ابن الأغلب ، لتشاركهم في حصار العاصمة .
وضيق المسلمون الخناق على المدينة ، حتى أجبروا
حاميتها على تسليمها .

واشتدت نفوسُ المسلمين بهذا الفتح المبين ، ثم
ساروا إلى مدينة (كاستروجوفاني) ، وفي رفقتهم
بوفيموس . فلما بلغ أهل المدينة تقدّم الجيوش
الإسلامية صوبهم ، خرج وجوه الناس لاستقبال
الغازين ، وقبّلوا الأرض بين يدي بوفيموس ، وقالوا
له : إنهم يؤلّونه عليهم . فانشرح صدره ، واطمأن
إليهم ، وسار معهم ؛ حتى إذا ما خيم الظلام ،
انقضّوا عليه وقتلوه !

وأطبقت الجيوشُ الإسلامية على المدينة من كل
جانب ، فلم يقو أهلها على الصمود في وجه
المجاهدين . فما تصرّمت أيّامٌ حتى تقلص ظلُّ النسر
الرُّومانيّ عن المدينة ، وراح اسمُ الله يتردّد في
جناباتها ، آناء الليل وأطراف النهار .
وأخذت المدُن تسقط ، واحدة إثر أخرى ؛
فسقطت جورجنتو (جرجنت) ، وقطانية ،

ومنسنين . ولم يبقَ العلمُ الرُّومانيُّ خفًّا إلا فوق
سِرْقُوسَة (سيراكوزا) آخرِ معاقلِ الجزيرة ، ولكن
لم يدم خفقانُه طويلا ، فسرعانَ ما أنزل ، وألقى
النَّسرُ الرُّومانيُّ على الأرض ، لُتمزَّقَه سنابكُ الخيولِ
العربيَّة .

واستقرَّ المسلمونَ في صِقْلِيَّة ، وراحَ المغامرونَ
يتأهبُّونَ للوثبةِ التالية ، فقد كانت تُراوِدُهم فكرة
غزو إيطاليا ؛ فما يفصلُ بينهم وبينها إلا مضيق
مسينى ، وما كان ذلكَ المضيقُ ليحولَ بين أصحابِ
الآمالِ العريضة ، وغزو إيطاليا .